المتلقي في القديم
بين الرؤية الإسلامية والغربية

أ – علي بخوش
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة بسكرة

يرتبط المتلقي في القديم بنظريتين* مختلفتين جوهريا، نظرية إسلامية وأخـــرى غربيـــة. وسبب هذا الاختلاف هو التباين في تحديد أصل الإنسان و الخلق الأول وبداية الحياة، ولذا كان لزاما التعرض إلى هذا الأمر بشيء من التفصيل.

1- أ المتلقي الأول (آدم عليه السلام) في النظرية الإسلامية:

ترى النظرية الإسلامية أن أصل الإنسان يبدأ من خلق آدم مصداقا لقوله تعالى:{ ﴿ ﴾ [1] }، فالنص القرآني يصرح أن وجود الإنسان وبدايته كانت بأمر من الله الذي أخبر ملائكته باتخاذ خليفة يخلفه في تنفيذ الأحكام في الأرض[2]، وقد وهب الله هذا الإنسان المكلف والمشرف من الطاقات الكامنة والقدرات والاستعدادات ما يمكنه من أداء وظيفته على أكمل وجه.

ويوحي تعقيب الملائكة** (﴿ ﴾ بأنهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض وأنه سيسفك الدماء استنادا

إلى شواهد الحال أو تجارب سابقة في الأرض أو من إلهام البصيرة، فكان أن خفيت عليهم حكمة الله العظيمة في بناء الأرض وعمارتها من طرف الإنسان الذي إن أفسد أحيانا وقتل أحيانا أخرى كان وراء الشر والفساد والقتل خير أعم وأشمل، وهو خير محاربته وخير المحاربة والاجتهاد والتطلع والتغيير[3].

اختار الله آدم ليكون خليفة له في الأرض، ووهبه كل ما يلزم ليؤدي هذه الوظيفة الصعبة، ومن بين ما منحه القدرة على الرمز بالأسماء على المسميات : { }[4]، والأسماء هنا أسماء المسميات كلها[5] مما يحتاج إليه الفرد للتواصل، وقد أراد الله أن يظهر للملائكة فضل آدم بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء والأشياء والأجناس واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور[6].

فيكون الحاصل ــ في النظرية الإسلامية ــ أن آدم هو أول مخلوق مكلف بأداء وظيفة الخلافة كما أمره الله، وموهوب بكل القدرات التي تمكنه من أداء مهمته، ويتضح أيضا أن قدرة التواصل اللغوي من أعظم القدرات وأجلها؛ ذلك أن التواصل اللغوي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض يستطيع بفضلها تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها ــ وهي ألفاظ منطوقة ــ رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة[7] فلا تفاهم ولا وتواصل لو لم يوهب الإنسان هذه القدرة.

ومن ثمة كان أمر الله للملائكة بالسجود لهذا الإنسان المكرم والموهوب بعد أن بين لهم قدرة آدم: { 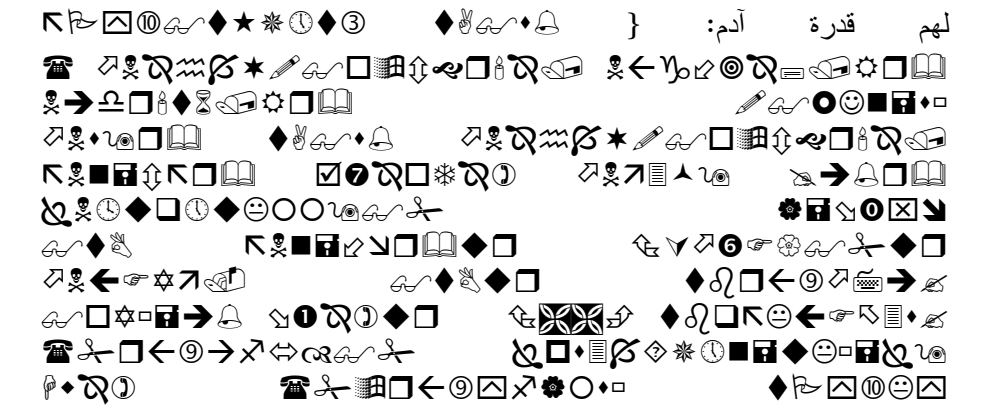 }

.[8]{

ليتم بعد ذلك الامتحان الذي فشل فيه آدم، ويتلقى كلمات* التوبة، ثم يأتي أمر الله بالنزول إلى الأرض وبداية الامتحان الكبير لآدم وذريته:

{

، وخلال هذا الامتحان يمنح[9]{

الإنسان كل الوسائل والأدوات التي تمكنه من النجاح والفوز؛ فالله عز وجل يبعث إليه الرسل والأنبياء وينزل الكتب الحاملة للبينات والبيان وهو ما تضمنه معنى لفظة الهدى في الآية السابقة[10]، ولا ريب أن هذه الرسائل الإلهية تضمنت نصوصا مدعمة بحجج قوية تدعو الإنسان المتلقي إلى الرجوع إلى طريق الحق، والسير في طريق الله الذي يقود إلى النجاح والسعادة دوما. وشك أيضا أنها تخاطبه بأسلوب صريح واضح دون تعقيد أو غموض أو تعجيز، فغاية النصوص هو تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الإنسان إلى سبيل الخير والفلاح.

تأسيسا على ما تقدم يتضح جليا أن الرؤية الإسلامية تقر أن الإنسان خلق كاملا ووهب كامل القدرات التي تمكنه من أداء مهمة الخلافة في الأرض، وبالتالي فهو متلق جيد ــ منذ البداية ــ للنصوص الإلهية بالرفض أو القبول، وعلى وعي تام وعقل كامل لكل أفعاله وممارسته في غيه وصلاحه، وهذا الوعي والعقل هو الذي استوجب الجزاء بالسعادة أو الشقاء. ولذا كان الله يبعث في كل فترة رسلا وأنبياء ليرشدوا الناس إلى الحق إذا زاغوا ويثبتوهم إذا أدركوه، ومع كل هذا فقد ترك الإنسان حرا في اختيار الطريق الذي يشاء: {

.[11]{

ونخلص إلى أن هذا المتلقي ــ في ضوء هذه النظرية ــ قد خلق كاملا تاما موهوبا بقدرات التواصل اللغوي في أقطابه الثلاث (الإرسال ــ النص ــ التلقي) مما يجعله مستقبلا بامتياز لكل النصوص اللغوية الإلهية والبشرية بالرفض والقبول.

1- ب ــ المتلقي الأول (الإنسان الأول) في النظرية الغربية:

يرتبط الإنسان الأول في النظريات الغربية عموما بالإنسان البدائي؛ والبدائية* تتعلق بما يسمى شعوب ما قبل التاريخ التي ظهرت إلى الوجود عن طريق تطور بعض الكائنات كالقرد مثلا، ويعرف عن الإنسان البدائي أنه ذلك الكائن الذي ظهر قبل خمس عشرة ألف سنة متصفا بالصفات المتوحشة، وأقرب للحيوان منه للإنسان[12].

حيث يميل أغلب المؤرخين إلى وصف أحوال الشعوب التي عاشت قبل ظهور الكتابة ــ بالشعوب البدائية أو الهمجية أو البربرية، وذلك لتأكيد شبهها في السلوك والمعاملة مع بعض الثديات القريبة من الإنسان، ليصلوا إلى فكرة مفادها أن هذه الشعوب كانت تنتهج نهجاً لا يرتقي إلى معايير السلوك الإنساني المتحضر الذي عرفته الإنسانية مع تشكل الحضارات وظهور الثقافات المتقدمة[13].

ومن أهم صفات هذه الشعوب البدائية أنها " لاكتابية "[14] وتعتمد بعض الرموز الساذجة في التواصل اللغوي، ويرى بعض الباحثين أن بداية تذوق الفن لدى الإنسان البدائي كان حين سكن الكهوف؛ فقد أخذ إحساسه بالجمال ينمو، فصنع التماثيل من الطمي والمساكن من الطوب، وعمل على زخرفة جدران كهوفه ومساكنه بشتى أنواع الحيوانات والطيور المستوحاة من البيئة[15].

وهذا يعني ــ عكس النظرية الإسلامية ــ أن المتلقي البدائي ذا فطرة ساذجة جدا وحس فني شبه منعدم، ولا يستطيع التعبير بلغة واضحة عن مراده وأحواله، ولذا فهو لا يمكنه أن يتلقى نصوصا لغوية ولا أن يتفاعل معها سلبا أو إيجابا حتى وإن كان مستواها بسيطا.

وترى هذه النظرية الغربية أن الإنسان المتلقي قد بدأ يتطور في ذوقه وتواصله اللغوي شيئا فشيئا؛ ففي مصر القديمة مثلا استلهم الفنان المصري البيئة الطبيعية من حوله، إذ تأمل الحيوان والنبات والطيور، وشاهد جمال البيئة المصرية بما تتميز به من سماء صافية وشمس ووديان، وعكس ذلك في فنه، وهذا ما يظهر في قبورهم وكذلك في الأواني الفخارية والفؤوس والأدوات والحلي مما كان يبهر المتلقي[16].

ويبدو غريبا الحديث عن تذوق المتلقي في مصر القديمة للرسومات والأشكال والرموز وغياب تذوق الكلمة والنص، وهذا ما يطرح احتمالين: فإما أن النصوص اللغوية (المائلة إلى الفن والأدب) التي يتداولها المصريون لم تصل إلى أيدي الباحثين، وإما أن المصريين القدامى برعوا في فن الرسومات واتخذوه بديلا ــ في التواصل الفني ــ عن النصوص اللغوية نفسها.

فأما الاحتمال الثاني فيبدو ضعيفا، ذلك أن الحضارة المصرية تشهد على تفوق الإنسان المصري في عديد المستويات الحضارية، وهو ما يجعله مؤهلا لتواصل لغوي راق رقي الحضارة نفسها، كما تظهر بعض النصوص القرآنية ــ إذا اعتمدنا المرجعية الإسلامية ــ أن التواصل المؤثر كان يتم لغويا في ذلك العهد؛ ومثال ذلك ما كان بين النبي موسى عليه السلام وفرعون: { ﴿ ﴾ }[17].

حيث يتبين من دعاء موسى عليه السلام (﴿ ﴾) أهمية التخاطب اللغوي في التفاهم مع الطاغية فرعون، وهذا ما يتعارض مع كون الإنسان المصري ذو مستوى محدود في التواصل اللغوي المؤثر.

وعموما تذهب النظرية الغربية إلى أن الإنسان البدائي الأولي لا يكاد يفرق بين نفسه وبين العالم الخارجي، وأن تذوقه للفن وتلقيه له بدائي طفولي[18].

وهذا ما يتناقض مع النظرية الإسلامية التي تنقض كلية هذا القول، وتؤكد على أن الإنسان ــ كما سبقت الإشارة ــ منذ خلقه الله قد وهبه آليات التذوق والمعرفة تمكنه من تمييز النصوص اللغوية المسموعة والمكتوبة والتأثر بها إيجابا أو سلبا.

2 ــ المتلقي في الفكر القديم:

يستلزم البحث عن حيثية المتلقي عند القدامى ــ في الفكر اليوناني والعربي على حد سواء ــ توضيح نقطتين مهمتين: الأولى، هي أن على الباحث عن المتلقي في الفكر القديم أن يتجنب قدر الإمكان ضغط النظريات الحديثة كجمالية التلقي الألمانية مثلا؛ ذلك أن النظر إلى فكر القدامى من منظور المحدثين يسيء إلى البحث الموضوع، لأن إسقاط أصول النقد الحديث على أفكار قديمة أمر غير عادل، إنما ينبغي على الباحث الموضوعي أن ينظر إلى فكر القدامى في ظل الظروف التي نشأ فيها والبيئة الفلسفية التي ولد في ظلالها، متجنبا تأثير المركزية النقدية الغربية الحديثة.

أما النقطة الثانية فتخص كيفية التلقي قديما، حيث كان الجمهور يستقبل الأعمال الأدبية غالبا عن طريق السماع؛ ففي اليونان كان الشعر ينظم على أنغام الآلات الموسيقية، وأنغام العود، وارتبطت المسرحيات عندهم بأناشيد الجوقة، وكذلك كان الشعر الجاهلي ينشد في مجالس الشعر[19]. لذا كان من اللازم أن أشير إلى قضية السماع والتفصيل فيها، لأن النص السماعي يقتضي آليات تلق مختلفة عن آليات تلقي النص الكتابي.

2 – أ الشفاهية والكتابية في القديم:

لا غرو أن التأكيد بأن الشفهية أسبق وأهم في الخطاب اليومي قديما وحديثا لا يحتاج إلى دليل، فالشفهية أسهل وأسرع من الناحية العملية في الاستعمال والتوظيف، ومازالت الشواهد التاريخية تشهد على أفضلية الخطاب الشفهي.

ولذا يمكن الحديث عن فرق جوهري بين النص المسموع (الشفهي) والنص المكتوب؛ فالنص الشفهي مرتبط ارتباطا كبيرا بالتواصل قديما (خاصة التواصل الأدبي العربي القديم) وبمجموعة من الآليات والأدوات، وهذا ما يجعل من الباحث في النصوص التواصلية القديمة ملزما بالنظر إليها في سياقها الخاص دون أن يحكم سياقه الحالي، بمعنى « أن ننظر إليهم (القدامى) في سياقهم الخاص وقد تفاعل مع سياقنا الخاص،على أن نكون في الوقت نفسه على وعي بالفروق الرئيسة بين هذين السياقين»[20].

وهذا ما يقود إلى الحديث عن نظرية شفاهية ظهرت في الفكر الغربي يمكن الاستعانة ببعض نتائجها في فهم أهمية الخطاب المنطوق، مع ضرورة الإشارة أن بعض نتائجها تنطبق على الأدب العربي القديم خاصة تلك الجهود المنطلقة من دراسة الإلياذة.

وهي نظرية تسمى غالبا نظرية الصيغ الشفاهية Oral-Formulaic Theory، وترتبط بجهود مفكرين غربيين من بينهم ميلمان باري (1902 – 1935) وتلميذه ألبرت لورد، كما ينبغي النظر إلى جون ميلز فولي على أنه أهم الدارسين المعاصرين والمؤرخين لهذه النظرية، ويمكن اعتبار مؤلفه (نظرية الإنشاء الشفاهي ، تاريخ ومنهج) أحدث ما كتب في هذا الصدد[21].

تمنح هذه النظرية المظهر الشفهي كل الأهمية، فللكلمة المنطوقة قوة وفعل، فهي تقول إن أغلب الشعوب تنظر إلى الكلمات بوصفها حاملة لقوة عظيمة .فلا يمكن أن يصدر الصوت دون استخدام للقوة؛ «إذ يمكن للصياد أن يرى ثور البفالو ويشمه ويتذوقه ويلمسه وهو متجمد في مكانه أو حتى ميت ولكنه حين يسمع صوته ،فمن الأفضل له أن يحترس؛ لأن

هذا معناه أن شيئا ما سيحدث .وبهذا المعنى يكون كل صوت ،وخاصة ذلك الـــذي تنطقـــه الشفاه ويأتي من الكائنات العضوية الحية ديناميا»[22].

وهذا يعني أن للكلمة المنطوقة قديما قوة سحرية عند المرسل والمتلقي معا وعليها يترتب كل شيء، فالمرسل عليه أن يكون في أهبة الاستعداد لنطق الكلمات التي تصبح ملزمة له، والمتلقي هو الآخر ينبغي أن يبدي الاستعداد نفسه لتلقي مضـــمونها فـــي الوقـــت ذاتـــه، والمكان ذاته، وأي خلل ــ ولو كان بسيطا ــ يصيب العملية كلها بالفشل.

ومن ثمة فإن الحضور الزماني والمكاني يعد من أهم مظاهر الخطاب الشفهي، فالمرســـل يحتاج إلى الكلمات التي يتذكرها لإرسال خطاب في زمن قصير جدا ــ عكس الخطـــاب الكتابي ــ إلى متلق مرتبط بمكان ما ونفسية معينة ومزاج معين وثقافة خاضعة لأعراف مجتمع ما، وينبغي لهذا المرسل من خلال معجمه اللغوي الخاص وتلك الظروف المرتبطة بالمتلقي والزمن القصير أن يوصل خطابه كاملا وواضحا ومفهوما، واضعا في الاعتبار أن المتلقي نفسه خاضع للاعتبارات ذاتها.

هذا حين يتعلق الأمر بنصوص لغوية يسيرة تتعلق بالاستخدام اليومي، أما إن كان الأمـــر يتعلق بالنصوص الأدبية والفلسفية فإن الأمر يزداد صعوبة؛ ذلك أن النصـــوص الأدبيـــة ليست نصوصا مكتوبة يمكن الرجوع إليها في أي وقت، إنما هي نصـــوص تلقـــى مـــرة واحدة وتحفظ في الذاكرة، ثم إنها تتميز بميلها إلى استخدام الخيال والطرق غير المباشرة في التعبير مما يصعب على المتلقي استيعابها وتذوقها والاستجابة لها في لحظات يســـيرة من الزمن.

ويمكن أن يطرح سؤال هنا عن كيفية تنظيم النصوص وإعـــادة إنتاجهـــا فـــي الخطـــاب الشفهي؟

يرى أصحاب النظرية الشفهية أنه « مادامت لا توجد أية كتابة على الإطلاق، فلا شـــيء موجود خارج المفكر... إن وجود مخاطب في هذه الحالة أمر جوهري فمـــن الصـــعب أن تتحدث إلى نفسك لساعات دون انقطاع .فالفكر المتصل في الثقافة الشفاهية يرتبط بالتواصل بين متحاورين أو أكثر»[23] ومن ثمة يلزم المرسل أن يفكر تفكيرا « يمكن تـــذكره. ففـــي الثقافة الشفاهية الأولية ، عليك ، لكي تحل مشكلة الاحتفاظ بالتفكير المعبـــر عنـــه لفظيـــا واستعادته على نحو فعال، أن تقوم بعملية التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر ، صيغت بصورة قابلة للتكرار الشفاهي وينبغي أن يأتي تفكيرك إلى الوجود إما في أنماط ثقيلة الإيقاع

، متوازنة ، أو في جمل متكررة أو متعارضة؛ أو في كلمات متجانسة الحروف الأولى أو مسجوعة، أو في عبارات وصفية أو أخرى قائمة على الصيغة ، أو في وحدات موضوعية ثابتة (مثل موضوع المجلس ، وتناولت الطعام ، والمبارزة ، و« مساعد » البطل ، إلخ)؛ أو في الأمثال ، التي يسمعها المرء باستمرار وترد على الذهن بسهولة ، وقد صيغت هي نفسها على نحو قابل للحفظ والتذكر السهل ، أو في أشكال أخرى حافزة للتذكر. فالفكر الجاد مجدول مع نظم للذاكرة .والحاجة الحافزة للتذكر تقرر تركيب الجملة نفسه»[24].

فإذا أسقطنا بعض ذلك على الأدب القديم، ألفينا الشعر الجاهلي مثلا يعتمد على الجمل البليغة الفصيحة ذات الإيقاع الخلاب و المحفز للحفظ والتذكر، وعلى الصور البيانية التي تشد الذهن وترسخ فيه. ذلك أن الجمل البليغة والإيقاع الثابت يساعدان على الحفظ ويحفزان الذاكرة.

بناء على ما تقدم يمكن أن أخلص إلى أن الخطاب الشفهي بين المرسل والمتلقي يفترض الآنية الزمانية والمكانية، كما يفترض قوة الذاكرة وسرعة الحفظ والقدرة الكبيرة على التنظيم الذهني للكلمات واستخدام الجمل القصيرة والميل للكلام البليغ ، كما أنه ــ وهو أمر ضروري ــ محتاج إلى سماع جيد حتى تتحقق الاستجابة على نحو جيد. كما يحتاج أيضا إلى لسان مبين. ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط الآتي:

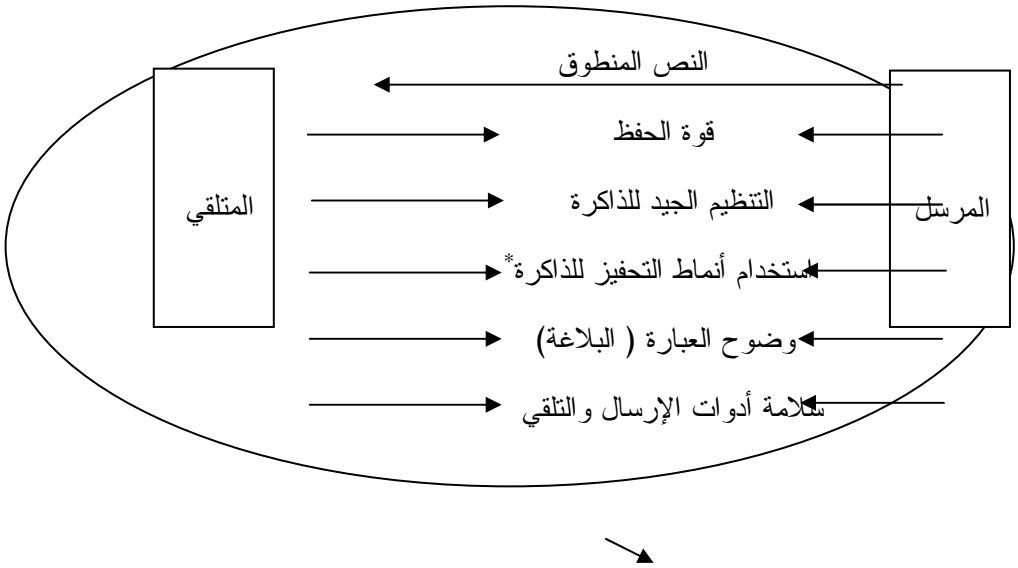

التواصل الشفهي يستلزم الحضور المكاني والزماني للمرسل والمتلقي ومراعاة السياق الخاص بهما.

شكل 01 يبين مميزات التواصل الشفهي السليم

وعلى العموم يجب أن ينظر الباحث في الآداب الشفهية القديمة نظرة مختلفة عن الآداب المكتوبة حتى يصل إلى نتائج موضوعية، كما يفترض أن يضع في الحسبان الفروق الجوهرية بين الخطاب الشفهي ونظيره الكتابي حتى تكون الأحكام النقدية عادلة.

المراجع

* القصد هو اتجاهين فكريين منطلقين من مرجعيتين مختلفتين كل الاختلاف.

[1] سورة البقرة، الآية 30.

[2] صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1421، 2001، ج1، ص41.

** سؤال الملائكة كان على سبيل الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا سبيل الاعتراض. ينظر: صحيح قصص الأنبياء: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي، ط1، مكتبة الريان، الجزائر، 1422هـ ـ 2002 م، ص13.

[3] ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط9، 1400هـ ـ 1980، المجلد الأول، ص56.

[4] سورة البقرة، الآية 31.

[5] صفوة التفاسير، ج1، ص41. ويقول ابن عباس : علمه كل شيء حتى القصعة والمغرفة. ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[6] المرجع نفسه، ج1، ص41.

[7] في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص57.

[8] البقرة، الآية 33 ـ 34.

* قيل إن الكلمات مفسرة بقوله تعالى: [قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين]: ينظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين، أبو الفداء

إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ج1، الترجمة مع المقدمة والتفسير من سورة الفاتحة إلى آل عمران، ملتقى أهل الحديث، ص157.

[9] البقرة، الآية 38.

[10] تفسير القرآن الكريم، ص158.

[11] الكهف، الآية 29.

[*] يشير مصطلح البدائية primitivisme بوجه عام إلى الفجاجة وانعدام التطور والخشونة وتدني النوعية. ينظر: آشلي مونتاغيو، البدائية ، تر/محمد عصفور، عالم المعرفة، ع35، ماي 1982، ص20.

[12] آشلي مونتاغيو: البدائية، ص16، ويرى صاحب المؤلف أن هذا الاعتقاد الذي يسود الفكر الغربي بصفة عامة هو اعتقاد فيه كثير من الأخطاء.

[13] علي أسعد وطفة: طبيعة التفكير عند الشعوب البدائية، (موقع إنترنت بتاريخ (13.4.2008 - 01:55)

[14] المرجع نفسه، ص16.

[15] علي عبد المعطي محمد وراوية عبد المنعم عباس: الحس الجمالي وتاريخ التذوق الفني عبر العصور، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 2003، القاهرة، ص13.

[16] المرجع السابق، ص16–17.

[17] طه، الآية 24–28.

[18] الحس الجمالي وتاريخ التذوق الفني عبر العصور، ص13.

[19] رمضان الصباغ: في نقد الشعر العربي المعاصر دراسة جمالية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية، ط1، 1998، ص17.

[20] والترج. أونج: الشفاهية والكتابية. تر/ حسن البنا عزالدين،عالم المعرفة، 1994، ص10.

[21] ينظر: المرجع نفسه، ص11.

[22] المرجع السابق، ص75.

[23] المرجع السابق،ص 77.

[24] المرجع نفسه، ص 77.

[*] يمكن إدراج الإيقاع والجمل القصيرة وكل المؤثرات التي تحفز المرسل والمتلقي معا.